

USING THE CHARACTERISTICS OF ISLAMIC CIVILIZATION IN TEACHING SKILLS

Shirin S. ALODWAN¹

Researcher, Al-Ain University, UAE

Abstract

Islam is a universal religion that encourages science and considers it obligatory for every Muslim, and has never been the cause of retardation. Any science is acceptable unless it is a flag that contradicts Islamic law and its rules. Islam honors scientists and makes them inheritors of the prophets and orders knowledge from birth to death.

Civilization meaning: "living and staying in urban area and civilization of the city, which is unlike Badia, cities, villages and countryside, so named because the people attended the places and houses of homes that have a decision, remember civilization in the language it means what is the opposite of the Bedouin, means, the inhabitants of cities and villages.

A manifestation of Islamic civilization:

- Foundations of the system of governance in Islamic civilization, including the method of choosing the ruler and the way of governance "Koran and Sunnah, Shura and justice and guarantee freedom of the Muslim and other freedom of choice for his religion.
- Islamic civilization and economic life: - Islam built an integrated economic system and organized the methods of collecting money and methods of spending as well.
- Islamic civilization and its influence on education through the Quran and Sunnah encouragement to acquire science.
- Islamic civilization and social impact on life: The signs of Islamic social life and organization from the first moment of the Prophet's founding in the establishment of the mosque and the organization of relations of immigrants and supporters and the conclusion of treaties with non-Muslims in society.
- Science: There was a special interest in Islam with science and its types and details such as translation, medicine, mathematics, agriculture and chemistry.
- Science and the Arts: It is clear that the great impact of Islamic art in all fields and during the successive Islamic eras and Islamic controversies that continue to the present time on all other civilizations and until now Western societies are affected by Islamic science and art.

Key words: Islamic Civilization, Teaching Skills.

 <http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.17.24>

¹  Shirin.alodwan@aau.ac.ae

استخدام سمات الحضارة الإسلامية في مهارات التدريس

شيرين العدوان

الباحثة، جامعة العين، الإمارات العربية المتحدة

الملخص

إن الإسلام دين عالمي يشجع العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، ولم يكن في أي وقت مدعاة للتخلف، فأبي علم مقبول إلا إذا كان علماً يخالف شريعة الإسلام وقواعده. والإسلام يكرم العلماء ويجعلهم ورثة الأنبياء ويأمر بطلب العلم من المهد إلى اللحد.

الحضارة في اللغة وكما ورد في لسان العرب والمصباح المنير: "الإقامة في الحَضْر، والحَضْر والحَضْرَة والحاضرة والحضارة بفتح الحاء وكسرهما سكنون الحضر، وهي خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، وحين تُذكر الحضارة في اللغة فإنه يقصد بها ما هو عكس البداوة، أي سكنى المدن والقرى.

من مظاهر الحضارة الإسلامية:

-أسس نظام الحكم في الحضارة الإسلامية، ومنها طريقة اختيار الحاكم وطريقة الحكم "بالقرآن والسنة والشورى والعدل وضمان الحرية للإنسان المسلم وغيره وحرية الاختيار لدينه.

-الحضارة الإسلامية والحياة الاقتصادية: -بنى الإسلام نظاماً اقتصادياً متكاملًا فنظم طرق جمع المال وطرق إنفاقه أيضاً.

-الحضارة الإسلامية وأثرها على التعليم من خلال تشجيع القرآن والسنة على اكتساب العلم.

-الحضارة الإسلامية والأثر الاجتماعي على الحياة: ظهرت بوادر الحياة الاجتماعية الإسلامية وتنظيمها منذ اللحظة الأولى للهجرة النبوية في تأسيس المسجد وتنظيم علاقات المهاجرين والأنصار وإبرام المعاهدات مع غير المسلمين في المجتمع.

-العلم: كان هناك اهتماماً خاصاً للإسلام بالعلم وأنواعه وتفصيله مثل الترجمة والطب والرياضيات والزراعة والكيمياء.

-العلوم والفنون: من الواضح وجود الأثر العظيم للفنون الإسلامية على كافة المجالات وخلال العصور الإسلامية المتعاقبة والخلافات الإسلامية المتتابعة حتى الوقت الحاضر على كافة الحضارات الأخرى ولأن تتأثر المجتمعات الغربية بالعلم والفنون الإسلامية

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية، مهارات التدريس.

المقدمة

إن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي لم يُفصل فيها الدين عن الدولة مع نجاتها من كل مآسي المزج بينهما كما عرفته أوروبا في القرون الوسطى.

لقد كان رئيس الدولة خليفة وأميرًا للمؤمنين، لكن الحكم عنده للحق والتشريع للمختصين فيه، ولكل فئة من العلماء اختصاصهم والجميع يتساوون أمام القانون، والتفاضل بالتقوى والخدمة العامة للناس " والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها " (رواه البخاري ومسلم)، " الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الله أنفعهم لعياله " (رواه البزار). هذا هو الدين الذي قامت عليه حضارتنا، ليس فيه امتياز لرئيس ولا لرجل دين ولا لشريف ولا لغني (قل إنما أنا بشرٌ مثلكم) [الكهف: 110].²

إن الإسلام دين عالمي يشجع العلم ويعتبره فريضة على كل مسلم، ولم يكن في أي وقت مدعاة للتخلف، فأبي علم مقبول إلا إذا كان عالماً يخالف شريعة الإسلام وقواعده. والإسلام يكرم العلماء ويجعلهم ورثة الأنبياء ويأمر بطلب العلم من المهد إلى اللحد. وتتميز الحضارة الإسلامية بالتوحيد والتنوع العرقي في الفنون والعلوم والعمارة طالما لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلامية. لأن الحرية الفكرية كانت مقبولة تحت ظلال الإسلام. وكانت الفلسفة يخضعها الفلاسفة المسلمون للقواعد الأصولية مما أظهر علم الكلام الذي يعتبر عالماً في الإلهيات. فأخذته أوروبا وكان له تأثيره في ظهور الفلسفة الحديثة وتحرير العلم من الكهنوت الكنسي فيما بعد. مما حقق لأوروبا ظهور عصر النهضة فيها. فالنهضة الإسلامية جعلت من العرب والشعوب الإسلامية يحملون المشاعل التنويرية للعالم في العصور الوسطى حتى أصبحوا فيها سادة العالم ومعلميه.³

وغيرت الكنيسة من فكرها مبادئها المسيحية لتساير التأثير الإسلامي على الفكر الأوروبي وللتصدي للعلمانيين الذين تخلوا عن الفكر الكنسي وعارضوه وانتقدوه علانية. وظهرت المدارس الفلسفية الحديثة في عصر النهضة أو التنوير بأوروبا كصدي لأفكار الفلاسفة العرب. ظهرت مدن تاريخية في ظلال الحكم الإسلامي كالكوفة والبصرة وبغداد ودمشق والقاهرة والفسطاط والعسكر والقطائع والقيروان وفاس ومراكش والمهدية والجزائر وغيرها. كما خلفت الحضارة الإسلامية مدناً متحفية تعبر عن العمارة الإسلامية كإستانبول بمساجدها والقاهرة بعمائرها الإسلامية وبخاري وسمرقند ودلهي وحيدر أباد وقندهار وبلخ وترمز وغزنة وبوزجان وطليلة وقرطبة وإشبيلية ومرسية وسراييفو وأصفهان وتبريز ونيقيا وغيرها من المدن الإسلامية.⁴

أهمية البحث: يعد هذا البحث ذو أهمية خاصة وذلك لأنه يظهر أهمية الحضارة الإسلامية من عدة جوانب في الحياة وما كان لها من أثر على البشرية قاطبة حيث انها لم تتأثر بالحضارات التي سبقتها بل صهرتها وغلبت عليها وجعلتها تدخل في بوتقتها.

أهداف البحث:

- 1- بيان تأثير الحضارة الإسلامية وتطبيقاتها في سائر الأمم التي لم تدن بالإسلام.
- 2- تأكيد أن الحضارة الإسلامية هي الوحيدة التي تشتمل أسسها الفكرية والنفسية على حاجات الحياة كلها من مختلف الجوانب الفكرية والروحية والنفسية والجسدية والمادية.
- 3- بيان أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة الوحيدة التي تمنح الأمم الصورة المثلى التي تتوق إليها.

منهج البحث: تقتضي سلامة الوصول إلى نتائج إيجابية لدراسة هذا الموضوع أن أتبع المنهج الاستقرائي والوصفي والتحليلي، وتسلسلاً مع ما تمليه طبيعة البحث العلمي المتدرج من أسس موضوع البحث إلى فروعه، فثمراته، وذلك بتحديد الملامح العامة للموضوع، وتتبع مراحل التقدم والنمو والازدهار فيه، ومن ثم وصف الحالة العامة له وبيان المرتبة السامية التي وصلت إليها حضارتنا وفق التوجيهات القرآنية.

2 علي بن نايف الشهود، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وأمال المستقبل، 2009

3 د. عبد الرحمن بدوي، الفلسفة والفلاسفة في الحضارة العربية، 1987

4 د. أحمد علي عجيبه أستاذ العقيدة والأديان، أثر الكنيسة على الفكر الأوروبي، دار الأفاق العربية الطبعة الأولى 2004 القاهرة

هيكـل البـحث:

اشتملت الورقة على مقدمة وعدد من المباحث وتحتها عدد من المطالب وخاتمة، وجاءت المباحث والمطالب على النحو الآتي: المبحث الأول: مصطلحات وتعريفات، ويتضمن: تعريف مصطلح الحضارة، الثاني: أركان الحضارة، ويتضمن: الإنسان، والحياة، والكون، الثالث: أهم خصائص الحضارة الإسلامية ومظاهرها، ويتضمن: العقيدة، الشمولية والعالمية، والحث على العلم،

الفصل الأول

مصطلحات وتعريفات

تعريف مصطلح الحضارة:

الحضارة في اللغة وكما ورد في لسان العرب والمصباح المنير: "الإقامة في الحَضْر، والحَضْر والحَضْرَة والحاضرة والحضارة بفتح الحاء وكسرهما سكنون الحضر، وهي خلاف البادية، وهي المدن والقرى والريف، سميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار، وحين تُذكر الحضارة في اللغة فإنه يقصد بها ما هو عكس البداوة، أي سكنى المدن والقرى"⁵.

والمعنى اللغويّ هو غير المعنى الاصطلاحيّ، ولو كان ذا صلة به. ومرادنا في هذا البحث الوقوف على المعنى الاصطلاحيّ للحضارة، وأوّل من توسّع في الكلام عن الحضارة والتفريق بينها وبين البداوة هو عبد الرحمن بن خلدون (ت: 808 هـ)، الذي يرى: "أنّ الناس حين تخطّوا في كسبهم للمعاش ما هو ضروري وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى والرفه، دعاهم ذلك إلى السكن والدعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستكثروا من الأوقات والملابس والتأثّق فيها، وتوسّعت البيوت واختلطت المدن والأمصار للتحضّر، ثمّ تزيد حالة الرفه والدعة فتجيء عوائد الترف البالغة مبلغها في التأثّق في علاج القوت واستجداء المطابخ وانتقاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والديباج وغير ذلك، ومغلاة البيوت والصروح وإحكام وضعها في تنجيدها والانتها في الصنائع في الخروج من القوّة إلى الفعل إلى غايتها فيتخذون القصور والمنازل ويحجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويبالغون في تنجيدها ويختلفون من استجداء ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو أنية أو ماعون. وهؤلاء هم الحضر، ومعناه الحاضر من أهل الأمصار والبلدان"⁶.

والحضارة في الاصطلاح يراد منها التعبير عن طراز العيش الذي يسود مجتمعاً من المجتمعات، أي هوية ذلك المجتمع، وعلى حدّ تعبير رالف لنتون⁷: "فالمجتمع عبارة عن مجموعة منظّمة من الأفراد، والحضارة مجموعة منظّمة من الاستجابات التي تعلّمها الأفراد وأصبحت من مميّزات مجتمع معيّن"⁸. ونستمع إلى صامويل هان تغتون⁹ في تعريفه للحضارة يقول: "فما الذي نعنيه عندما نتحدّث عن حضارة ما؟ إنّ الحضارة هي كيان ثقافي، فالقرى والأقاليم والمجموعات الإثنية والقوميّات والمجموعات الدينيّة لها جميعها ثقافات متميّزة... وهكذا فإنّ الحضارات هي أعلى تجمّع ثقافيّ للناس وأوسع مستوى للهويّة الثقافيّة للشعب ولا يسبقها إلا ما يميّز البشر عن الأنواع الأخرى، وهي تحدّد في أن معاً بالعناصر الموضوعيّة المشتركة، مثل اللغة والدين والتاريخ والعادات والمؤسّسات، وبالتحديد الذاتي الذي يقوم به الشعب نفسه"¹⁰.

5 أبحاث المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، 2005.

6 محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، دار الفرقان، 2008.

7 الدكتور عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، 2010.

8 تحقيق: د. محمد رضوان الداية، التوقيف على مهمات التعريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1990م.

9 محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.

10 محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع الصحيح (صحيح البخاري): دار الشعب، القاهرة، الطبعة الأولى، 1987م.

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة الإسلامية

المبحث الأول: أسس نظام الحكم في الحضارة الإسلامية

جاء الإسلام رحمة للعالمين، وجاءت تعاليم الإسلام لتضمن سلامة المجتمع البشري من التفكك والضعف والانحلال، ولتضمن سعادته في الدنيا والآخرة، ولقد تمسك بها الصحابة -رضي الله عنهم- فخضعت لهم الدنيا، وأسسوا للإسلام دولة واسعة الحضارة، قوية البناء، محبة للعلوم، والتاريخ خير شاهد على ذلك. لقد وضع الإسلام نظامًا لم يكن معروفًا في أي مجتمع من المجتمعات، ولم يكن هذا النظام تطورًا طبيعيًا أو غير طبيعي لأي نظام سابق عليه، لكنها امتصت عصارة الحضارات السابقة وصهرتها في بوتقة الفكر الإسلامي بكل ميزاته وخصائصه.¹¹

أسس وقواعد الحكم في الحضارة الإسلامية:

1- حق الأمة في اختيار الحاكم وتقويمه:

فالأمة صاحبة الحق في اختيار الحاكم ومبايعته، وفي الإشراف على سياسته وتصرفاته، ولها حق تقويمه إذا ابتعد عن طريق الصواب، وكل مسلم بالغ عاقل من حقه أن يشترك في بيعة الحاكم، وما يلزم في اختيار الحاكم هو اختيار أغلبية الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد وهم مجلس الشورى. وليس من الضروري أن يكون هناك إجماع على شخص رئيس الدولة الإسلامية، فمن المعروف تاريخيًا أن المسلمين جميعًا لم يجمعوا على اختيار حاكم، فالذين بايعوا الخلفاء الراشدين هم أهل المدينة، وبعض المسلمين من أهل مكة. ويُعزل الحاكم إذا ثبت عجزه وفساده.

2- العدل: أمر الإسلام بالعدل، وجعله غاية الحكم الإسلامي وهدفه، والعدل هو: إعطاء كل ذي حق حقه كاملاً غير منقوص. وهذا العدل مسئولية الحاكم، وواجب من الواجبات المفروضة عليه، والأمة لها الحق في أن تحاسب الحاكم إذا ظلم أحدًا. ويشمل العدل كل الحقوق المتعلقة بالأرواح والأعراض والحريات والأموال، للمسلم وغير المسلم.

وتحدثت كثير من الآيات في القرآن عن العدل، وحذرت من الظلم وعواقبه، قال الله تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم الله لعلكم تذكرون} [النحل: 90]، وقال رسول الله (ص): (اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة) ومن العدل أن يكون الناس أمام القانون سواء، فلا فرق بين شريف وضيع، ولا غني وفقير، فالعدل يخضع له الجميع، وبذلك يكون العدل هو أساس استمرار الدول والحفاظ عليها، يقول ابن تيمية: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة.¹² ومن أجل أن يتحقق العدل فلا بد له من قوة تحميه، ولا بد أن يكون حاكمًا لا خاضعًا، ولذلك نجد الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يحرص على جعل القضاء الذي يقيم العدل مستقلاً عن كل سلطة، حتى عن سلطة الحاكم، وصار ذلك مبدأ من مبادئ الحكم الإسلامي، فعندما تولى عمر الخلافة، واتسعت رقعة الدولة الإسلامية، عين لكل إقليم قاضيًا مستقلاً، ونظم السلطة القضائية وميزها عن غيرها، إن العدل يشعر المواطن بالأمن على ماله وعرضه وسائر حقوقه، ففي ظل العدل تختفي الجريمة، وينصرف كل إنسان إلى عمله، ويسهم في بناء مجتمعه وأمته، وبالعدل يجنى الإنسان ثمرة عمله وتعبه، وينطلق في ميادين التنافس الشريف في ميادين الخير، وبالعدل تتم المساواة، ويتفاضل الناس بحسب قدراتهم وجهدهم. إن الإسلام سبق كل الذين دعوا إلى العدل، وأرسى دعائمهم، وقد طبق العدل أروع تطبيق في حياة المسلمين.

3- الشورى: فالشورى ركن أساسي من أركان الحكم الإسلامي، قال سبحانه: {وشاورهم في الأمر} [آل عمران: 159]، وقال أيضاً: {وأمرهم شورى بينهم} [الشورى: 38]، وكان صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه كثيرًا. وكذلك كان الخلفاء الراشدون -رضي الله عنهم- من بعده يستشيرون أهل العلم والخبرة في كل الأمور، كاختيار القواد، وتسيير الجيوش، وتوزيع الغنائم، كما كانوا يرجعون إلى الفقهاء في المسائل التي لا يجدون لها حكمًا ظاهرًا في الكتاب والسنة.

4- الحرية: لقد احترمت الإسلام الحرية الفردية، فلم يكره أحدًا على أن يعتنق فلسفة معينة، ولم يرغمه على أن يعيش حياته وفق نظرية محددة، بل إن لكل فرد في الدولة الإسلامية حريته الكاملة في أن يفكر وأن يختار أسلوب حياته، وأن يعبر عن رأيه بشرط ألا يحد من حرية الآخرين. وفي مجال العقيدة الدينية، فقد أعطى الإسلام لأفراد الدولة الإسلامية الحرية في اعتناق أية

¹¹ د. طه الخطيب وآخرون، مراكز الحضارة الإسلامية، القاهرة 2009

¹² ابن تيمية، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

عقيدة، فمن حق أهل الكتاب الخاضعين للدولة الإسلامية أن يمارسوا شعائرهم دون أن يمنهم من ذلك أحد، قال تعالى: { لا إكراه في الدين } [البقرة: 256]، وقال سبحانه: { أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين } [يونس: 99].

المبحث الثاني: الاقتصاد في الحضارة الإسلامية

تعاني معظم النظم الاقتصادية المعاصرة الوضعية من العديد من المشكلات العملية، ولم تفلح في تحقيق الإشباع الروحي والمعنوي وكذلك المادي للشعوب، ولقد أنهار النظام الاقتصادي الاشتراكي والشيوعي، كما يعاني النظام الاقتصادي الرأسمالي من سكرات الموت وبدأ الاتجاه نحو العولمة والجات ونحو ذلك.

ولقد تخبطت الدول العربية الإسلامية في مجال التطبيق بين النظم الاقتصادية الوضعية، وتعاني العديد من المشكلات مثل: التخلف والتضخم والغلاء والتبعية الغذائية والمديونيات والفوائد الربوية، الخلل النقدي والبطالة ... وكل صور الفساد المالي والاقتصادي وبدأت تسأل عن النظام الاقتصادي المناسب الذي يعالج تلك المشكلات، ومعها النظام الاقتصادي الإسلامي ولكن لا تطبقه إما تجاهلاً وإما جهلاً.

مفهوم النظام الاقتصادي الإسلامي

يعتبر المال هو عصب الحياة على الأرض وأساس استعمارها وتسخيرها لإعانة الإنسان على العبادة، ولقد تضمنت الشريعة الإسلامية القواعد الكلية التي تحكم نظم النشاط الاقتصادي مثل سائر الأنشطة الأخرى، كما دعي إلى الاجتهاد في تطبيق هذه القواعد، مما يتفق مع ظروف الزمان والمكان، وبذلك يجمع الاقتصاد الإسلامي بين ثبات القواعد الكلية ومرونة التطبيق من حيث الإجراءات والأساليب والأدوات.

والنظام الاقتصادي الإسلامي: يستهدف إشباع حاجات الإنسان الأصلية وذلك في إطار من القيم والأخلاق الإسلامية، والسلوكيات الحسنة والتي تتفاعل مع بعضها البعض فتولد توازناً دائماً بين الفرد والمجتمع من حيث مصالح كل منهما ونشاطه، والنتيجة هي إشباع حاجات الإنسان المادية والروحية بأفضل شكل ممكن، وتحقيق رقي الإنسان في كافة ميادين الحياة والمحافظة على ذاتيته وكرامته.

ويهدف النظام الاقتصادي الإسلامي إلى تنظيم المعاملات بشكل يستطيع معها الوصول إلى مستوى معيشي كريم لأفراد المجتمع، يتصف بالنمو المطرد والمستقر وذلك من خلال التوظيف الكامل للموارد البشرية والطبيعية والعدالة في توزيع الدخل والثروات بما يحقق للفرد الحياة الكريمة الرغدة في الدنيا والفوز برضاء الله في الآخرة.

ويحكم النظام الاقتصادي الإسلامي مجموعة من القواعد والأسس المستنبطة من مصادر الشريعة الإسلامية على النحو الذي سوف نفضله في البند التالي، ومن أهم هذه المصادر ما يلي:

- القرآن الكريم.
- سنة رسول الله (ص).
- إجماع الفقهاء.
- التراث الإسلامي.

القواعد الكلية للنظام الاقتصادي الإسلامي

يقوم النظام الاقتصادي الإسلامي بطبيعته على القواعد الكلية التالية:

أولاً: الالتزام بالقيم الإيمانية عند ممارسة النشاط الاقتصادي، ويعتبر ذلك عبادة إذا ما قصد به وجه الله سبحانه وتعالى، لذلك يجب أن يراعي فيه التقوى والخشية من المحاسبة أمام الله، وهذا يحقق نوعاً من تميز الاقتصاد الإسلامي على ما عداه من النظم الاقتصادية الأخرى مثل وهي الرقابة الذاتية والإيمان الكامل باليوم الآخر والمحاسبة أمام الله عز وجل عن كسبة وإنفاقه.

ثانياً: الالتزام بالقيم الأخلاقية في المعاملات الاقتصادية ومن أهمها: الأمانة والصدق، والسماحة في المعاملات، والاعتدال، والقناعة في الربح، والتيسير على المعسر، والتصدق على المفلس، والتعاون على البر، والالتزام بروح الأخوة والإيثار.

ثالثاً: الأصل في المعاملات الاقتصادية الحل إلا ما نص الشرع على تحريمه مثل الربا بكافة صوره والاحتكار والغش والغرر والرشوة، وكل معاملة تؤدي إلى أكل أموال الغير ظلماً وعدواناً واستحلالها بدون وجه حق.

رابعاً: لا يجوز للدولة أن تأخذ من أموال الناس ما يزيد عن الزكاة (أو الجزية) أو غيرها من الرسوم المقررة إلا بقرار سياسي مبني على مشاوراة أهل الحل والعقد من المسلمين وموافقتهم، وذلك بعد تعويض من يؤخذ منهم المال بالحق وأساس ذلك قول رسول الله (ص): " كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله " (رواه مسلم).

خامساً: أساس الكسب المشروع بذل الجهد والتعرض للمخاطر، وربط الغنم بالغم، فلا كسب بلا جهد، ولا جهد بلا كسب، مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى: "فَأْمَسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ" (تبارك "15").

سادساً: أن الله قد خلق من الأرزاق ما يكفل حياة كريمة للمخلوقات وعلى الإنسان أن يسعى في الحصول على الرزق الطيب، ولما كان الإنسان يميل بغريزته إلى الاستكثار من الطيبات فوق الضروريات والحاجيات، لذلك ظهر ما يسمى بالندرة النسبية وعلاجها يكون عن طريق ترشيد الاستهلاك وزيادة الإنتاج، مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى " وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مَرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً " (سورة النساء "100").

سابعاً: أن العمل الصالح المتقن وسيلة الكسب المادي وغايته التقوية على عبادة الله، فالمادة وسيلة بناء الجسد، والعبادة لتغذية الروح، ويلزم على الفرد أن يوازن بينهما بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

ثامناً: إن المعاملات الاقتصادية هي علاقات تعاقدية تخضع لشروط العقد وأحكامه بصفة عامة والبيوع بصفة خاصة، ومن ثم يجب توثيقها بالكتابة والتسجيل أو غيرهما، ولقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم بقوله تعالى " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ " (البقرة " 282").

تاسعاً: حماية الملكية الخاصة المكونة بالحق والمقيدة بعدم الاعتداء على حقوق الآخرين وأدائها لحقوق المجتمع، ويجوز أن يكون بجانبها الملكية العامة والملكية التعاونية ليقوما بدورهما في التنمية الشاملة في المجالات التي يحجم عنها الأفراد.

عاشرأ: مجال المعاملات الاقتصادية هو الطيبات طبقاً للأولويات الإسلامية وهي الضروريات فالحاجيات فالتحسينات لتحقق مقاصد الشريعة الإسلامية وهي حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال.

تمثل القواعد السابقة الكليات المستقرة، وعلى الفقهاء الاجتهاد في مجال الفروع والأساليب وإجراءات التطبيق بما يلائم ظروف كل زمان ومكان، وهذا ما يعطي البرنامج الاقتصادي الإسلامي سمة الثبات والمرونة.¹³

المبحث الثالث: الحياة الاجتماعية

كانت البشرية قبل مجيء الرسول (ص) تعيش في ظلمات كثيرة، وتنخبط في الجهل، وكثرت الوثنية، ووصل عدد الآلهة التي تُعبد من دون الله إلى عدد لم تعهده البشرية من قبل، وانتشرت المفاصد والشرور والمساوئ الأخلاقية، وشمل الفساد كل بقاع الأرض، ثم شاء الله أن يرسل نوراً يزيل به ما على الأرض من ظلمة، فأشرقت شمس الإسلام، وتغيرت الموازين، ودبت الحياة في العالم.

وأقام الإسلام مجتمعاً متكاملأً، فبنى الفرد المسلم الصالح، فكان أساساً لبناء المجتمع المسلم الصالح المترابط الذي يسير على منهج الله سبحانه، وكان لابد من تكوين مجتمع مسلم؛ ليحمل عبء هذه الدعوة مع الرسول (ص)، والدفاع عنها بعد موته، ونشرها في كل أرجاء الدنيا.

أسس بناء الدولة الإسلامية الأولى في المدينة: إن أول مجتمع إسلامي تكوّن وتربى على الإسلام هو ذلك المجتمع الذي ربه الرسول الكريم وهو المجتمع المثالي لأي مجتمع، وقد أقامه الرسول (ص) على عدة أسس، هي:

بناء المسجد: لقد كان أول شيء قام به الرسول (ص) بعد قدومه إلى المدينة المنورة هو بناء المسجد، وقد كان للمسجد أثره الكبير في إقامة المجتمع الإسلامي على آداب الإسلام وتعاليمه، فلم يكن المسجد مكاناً لأداء الصلاة فقط، وإنما كان مكاناً للتربية وللعلم وللقيادة وللحكم والمناسبات الإسلامية. فقد كان الرسول (ص) يعلم المسلمين في المسجد أحكام الإسلام وتعاليمه وآدابه. وكان (ص) يقضي بين الناس في المسجد، وكانت تُعقد فيه ألوية الحرب وتوجيه الرسل إلى الملوك، وإدارة شئون

¹³ الشيخ حسن أيوب، فقه المعاملات المالية في الإسلام، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1998

الدولة الإسلامية، وكان المسجد مكاناً لعلاج المرضى وإسعافهم سواء في وقت السلم أو الحرب، وهكذا يظهر دور المسجد في بناء الدولة الإسلامية وحضارتها.

المؤاخاة بين المسلمين:

لقد كان الأساس الذي أرساه الرسول (ص) لبناء المجتمع الإسلامي في المدينة، بعد بناء المسجد هو المؤاخاة بين المسلمين، وهو عمل بدأه بين مسلمي مكة قبل الهجرة.

ولم يكن المهاجرون يملكون شيئاً بعد أن هاجروا إلى المدينة، فقد تركوا أموالهم وأولادهم في مكة، فأخى الرسول (ص) بين المهاجرين والأنصار، وقامت المؤاخاة على أسس مادية كالمشاركة في المال والثروة والتوارث فيها، بالإضافة للأسس المعنوية كالولاء والمناصرة، وظل هذا التوارث بسبب المؤاخاة قائماً حتى غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة، عندما نزل قوله تعالى: {وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم} [الأنفال: 75] فأصبح التوارث بسبب القرابة والرحم.

وقد أحب الأنصار المهاجرين حباً شديداً، وأثروهم على أنفسهم، فأتى الله عليهم، قال تعالى: {والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون} [الحشر: 6]. وهذه المحبة التي قامت بين المسلمين كانت نعمة من الله عليهم، فقد جعلت المسلمين أسرة واحدة، ومجتمعاً واحداً.

المعاهدة بين المسلمين وغيرهم:

أصبح سكان المدينة بعد المؤاخاة بين المسلمين جماعتين فقط: جماعة المسلمين، وجماعة غير المسلمين وأغلبهم من اليهود، فوضع الرسول (ص) دستوراً وميثاقاً للعلاقة بين المسلمين وغيرهم، وكانت هذه المعاهدة من أعظم المظاهر الحضارية في الحياة السياسية والاجتماعية التي جاء بها الإسلام لبيان الحقوق والواجبات التي على المسلمين وعلى غيرهم بصورة لم تعهدها شبه الجزيرة من قبل.¹⁴

المبحث الرابع: العلم والفنون

خلال قرني من وفاة الرسول (ص) كانت صناعة الكتب منتشرة في كل أنحاء العالم الإسلامي وكانت الحضارة الإسلامية تدور حول الكتب. فقد كانت توجد المكتبات الملكية والعامية والخاصة في كل مكان حيث كانت تجارة الكتب ومهنة النساخة رائجة وكان يقتنيها كل طبقات المجتمع الإسلامي الذين كانوا يقبلون عليها إقبالا منقطع النظير. وكان سبب هذا الرواج صناعة الورق ببغداد وسمرقند. وكانت المكتبات تتيح فرص الاستعارة الخارجية. وكانت منتشرة في كل الولايات والمدن الإسلامية بالقاهرة وحلب وإيران ووسط آسيا وبلاد الرافدين والأندلس وشمال أفريقيا. وكانت شبكات المكتبات قد وصلت في كل مكان بالعالم الإسلامي. وكان الكتاب الذي يصدر في بغداد أو دمشق تحمله القوافل التجارية فوق الجمال ليصل لقرطبة بإسبانيا في غضون شهر. وهذا الرواج قد حقق الوحدة الثقافية وانتشار اللغة العربية. وكانت هي اللغة العلمية والثقافية في شتى الديار الإسلامية. كما كان يعني بالنسخ والورق والتجليد. مما جعل صناعة الكتب صناعة مزدهرة في العالم الإسلامي لإقبال القراء والدارسين عليها واقتنائها. وكانت هذه الكتب تتناول شتى فروع المعرفة والخط وعلوم القرآن وتفسيره واللغة العربية والشعر والرحلات والسير والتراث والمصاحف وغيرها من آلاف عناوين الكتب. وهذه النهضة الثقافية كانت كافية لازدهار الفكر العربي وتميزه وتطوره. وفي غرب أفريقيا في مملكتي مالي وتمبكتو أثناء ازدهارهما في عصريهما الذهبي، كانت الكتب العربية لها قيمتها. وكان من بينها الكتب النادرة التي كانت تنسخ بالعربية، وكانت المملكتان قد أقامت المكتبات العامة مع المكتبات الخاصة.

الترجمة: في القرن الرابع الهجري، أوروبا وقتها لم يكن بها أكثر من عدد محدود من المكتبات التابعة للأديرة. ولا يعرف التاريخ أمة اهتمت باقتناء الكتب والاعتزاز بها كما فعل المسلمون في عصور نهضتهم وازدهارهم. فقد كان في كل بيت مكتبة. وكانت الأسر الغنية تتباهي بما لديها من مخطوطات نادرة وقيمة. وكان بعض التجار يسافرون إلى أقصى بقاع

¹⁴ أ.د. عبد العال أحمد عطوة، نظام الحكم في الإسلام، 2012

الأرض لكي يحصلوا على نسخة من مخطوط نادر أو حديث. وكان الخلفاء والأثرياء يدفعون بسخاء من أجل أي مخطوط جديد.

نهضة علمية: مع هذه النهضة العلمية ظهرت الجامعات الإسلامية لأول مرة بالعالم الإسلامي قبل أوروبا بقرنين. وكانت أول جامعة بيت الحكمة أنشئت في بغداد سنة 830 م، ثم تلاها جامعة القرويين سنة 859 م في فاس ثم جامعة الأزهر سنة 970 م في القاهرة. وكانت أول جامعة في أوروبا أنشئت في ساليرنو بصقلية سنة 1090 م على عهد ملك صقلية روجر الثاني. وقد أخذ فكرتها عن العرب هناك. ثم تلاها جامعة بادوا بإيطاليا سنة 1222 م. وكانت الكتب العربية تدرس بها وقتها. وكان للجامعات الإسلامية تقاليد متبعة وتنظيم. فكان للطلاب زي موحد خاص بهم وللأساتذة زي خاص. وربما اختلف الزي من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر. وقد أخذ الأوربيون عن الزي الجامعي الإسلامي الروب الجامعي المعمول به الآن في جامعاتهم. وكان الخلفاء والوزراء إذا أرادوا زيارة الجامعة الإسلامية يخلعون زي الإمارة والوزارة ويلبسون زي الجامعة قبل دخولها. وكانت اعتمادات الجامعات من إيرادات الأوقاف. فكان يصرف للطالب المستجد زي جديد وجراية لطعامه. وأغلبهم كان يتلقى منحة مالية بشكل راتب وهو ما يسمى في عصرنا بالمنحة الدراسية Scholarship. فكان التعليم للجميع بالمجان يستوي فيه العربي والأعجمي والأبيض والأسود. وبالجامعات كان يوجد المدن الجامعية المجانية لسكني الغرباء وكان يطلق عليها الأروقة. والطلبة كان يطلق عليهم المجاورون لسكانهم بجوارها. وكان بالجامعة الواحدة أجناس عديدة من الأمم والشعوب الإسلامية يعيشون في إخاء ومساواة تحت مظلة الإسلام والعلم. فكان من بينهم المغاربة والشوام والأكراد والأتراك وأهل الصين وبخاري وسمرقند. وحتى من مجاهل أفريقيا وآسيا وأوروبا. وكان نظام التدريس في حلقات بعضها يعقد داخل الفصول. وأكثرها كان في الخلاء بالساحات أو بجوار النافورات بالمساجد الكبرى. وكان لكل حلقة أستاذها يسجل طلابها والحضور والغياب. ولم يكن هناك سن للدارسين بهذه الجامعات المفتوحة. وكان بعض الخلفاء والحكام يحضرون هذه الحلقات. وكانوا يتناقسون في استجلاب العلماء المشهورين من أنحاء العالم الإسلامي، ويغرونهم بالرواتب والمناصب، ويقدمون لهم أقصى التسهيلات لأبحاثهم. وكان هذا يساعد على سرعة انتشار العلم وانتقال الحضارة الإسلامية بديار الإسلام. كانت الدولة الإسلامية تعني بالمرافق الخدمية والعامية بشكل ملحوظ. فكانت تقيم المساجد ويلحق بها المكتبات العامة المزودة بأحدث الإصدارات في عصرها ودواوين الحكومة والحمامات العامة ومطاعم الفقراء وخانات المسافرين على الطرق العامة ولاسيما طرق القوافل التجارية العالمية، وطرق الحج التراثية وإنشاء المدن والخانقاهات والتكايا المجانية للصوفية والبتامى والأرامل والفقراء وأبناء السبيل. وقيمت الأسبلة لتقدم المياه للشرب بالشوارع. وكان إنشاء البيمارستانات (المستشفيات الإسلامية) سمة متبعة في كل مكان بالدولة الإسلامية يقدم بها الخدمة المجانية من العلاج والدواء والغذاء ومساعدة أسر المرضى الموعزين. وكلمة باريمستان بالفارسية هو مكان تجمع المرضى، وكلمة مستشفى معناها بالعربية مكان طلب الشفاء. لهذا كان الهدف من إنشاء هذه المستشفيات غرضاً طبياً وعلاجياً. عكس المستشفيات في أوروبا وقتها، كانت عبارة عن غرف للضيافة ملحقة بالكنايس والأديرة لتقدم الطعام لعابري السبيل أو ملاجئ للعجزة والعميان والمقعدين ولم تكن للتطبيب. وكان يطلقون على هذه الغرف كلمة مضيضة Hospital، وهي مشتقة من كلمة ضيافة Hospitality. وأول مستشفى بني بإنجلترا في القرن 14 م. بعد انحسار الحروب الصليبية على المشرق العربي، بعدما أخذ الصليبيون نظام المستشفيات الإسلامية والطب العربي عن العرب. وكان أول مستشفى في الإسلام بناه الوليد بن عبد الملك سنة 706 م (88 هـ) في دمشق. وكان الخلفاء المسلمون يتابعون إنشاء المستشفيات الإسلامية الخيرية باهتمام بالغ. ويختارون مواقعها المناسبة من حيث الموقع والبيئة الصالحة للاستشفاء والانتعاش المكاني بعيداً عن المناطق السكنية. وأول مستشفى للجذام بناه المسلمون في التاريخ سنة 707 م بدمشق. في حين أن أوروبا كانت تنظر إلى الجذام على أنه غضب من الله يستحق الإنسان عليه العقاب حتى أصدر الملك فيليب أمره سنة 1313 م بحرق جميع المجذومين في النار. وكانت المستشفيات العامة بها أقسام طب المسنين، بها أجنحة لكبار السن وأمراض الشيخوخة. وكانت توجد المستشفيات الخاصة. والمستوصفات لكبار الأطباء بالمستشفيات العامة. ومن المعروف أن الدولة الإسلامية في عصور ازدهارها كانت تعطي أهمية قصوى لمرافق الخدمات العامة مثل المساجد ودواوين الحكومة والحمامات والمطاعم الشعبية واستراحات المسافرين والحجاج. وبديهي أن تكون أهم هذه المرافق المستشفيات. فقد كانت تتميز بالانتعاش والجمال مع البساطة. ومن بين هذه المستشفيات التراثية اليوم مستشفى السلطان قلاوون ومستشفى أحمد بن طولون بالقاهرة والمستشفى السلجوقي بتركيا. وكانت مزودة بالحمامات والصيدليات لتقديم الدواء والأعشاب. والمطابخ الكبيرة لتقديم الطعام الطبي الذي يصفه الأطباء للمرضى حسب مرضهم. لأن الغذاء المناسب للمرض كانوا يعتبرونه جزءاً من العلاج، ويشتمل المستشفى الكبير (الجامعي) على قاعة كبيرة للمحاضرات والدرس وامتحان الأطباء الجدد وملحق بها مكتبة طبية ضخمة تشمل على المخطوطات الطبية. والمشاهد لهذه المستشفيات سيجدها أشبه بالقصور الضخمة والمتسعة، بل والمنيفة. وحول المبني الحدائق ومن بينها حديقة تزرع فيها الأعشاب الطبية. ولم يأت منتصف القرن

العاشر م. حتى كان في قرطبة بالأندلس وحدها خمسون مستشفى وأكثر منها في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان علاوة المستشفيات المتنقلة والمستشفيات الميدانية لجرحي الحرب، والمستشفيات التخصصية كمستشفيات الحميات التي كان بها معزل طبي لعزل الأمراض المعدية. وفيها كان يبرد الجو وتلطف الحرارة بنوافير المياه أو بالملاقف الهوائية.

المبحث الخامس: فن العمارة الإسلامية

نشأت العمارة الإسلامية كحرفة بسيطة في البناء في أبسط أشكاله، ثم تطورت حتى كوّنت مجموعة الفنون المعمارية المختلفة. وفن العمارة من أهم مظاهر الحضارة، لأنها مرآة تعكس آمال الشعوب وأمانها، وقدراتها العلمية وذوقها وفلسفتها، ومن الحقائق الثابتة أن العمارة كانت دائماً الصورة الصادقة لحضارة الإنسان وتطورها وانعكاساً لمبادئه الروحية على حياته المادية، بما يكتب عليها -أي على العمارة- من كتابات وما ينقش عليها من نقوش.

وقد اشتمل الفن المعماري الإسلامي على عدة أنواع منها: فن عمارة المساجد، وهو أرقى فن معماري عند المسلمين، وفن عمارة القصور، وفن عمارة البيوت، وفن عمارة المدارس، وقد برع المسلمون في فنون العمارة بكل أشكالها؛ لأنهم فهموا نماذج العمارة في الحضارات السابقة ثم طوروها بما يتناسب مع عقيدتهم ودينهم، ثم أبدعوا بعد ذلك نموذجاً إسلامياً خاصاً بهم.

وسنأخذ أمثلة لفن العمارة الإسلامية في بعض العصور الإسلامية لنرى مدى محافظة المسلمين على أسس وقواعد البناء الإسلامي.

عصر النبوة والخلفاء الراشدين:

طبق المسلمون في عهد النبي (ص)، والخلفاء الراشدين قواعد البناء في الإسلام أروع تطبيق.

المسجد النبوي: فقد بنى النبي (ص) المسجد النبوي بالمدينة، وكان هذا المسجد بسيطاً، بما يتفق مع روح الدين الإسلامي، ومع قواعد وأسس البناء في الإسلام، وكان المسجد مربعاً، وصحنه الأوسط مكشوفاً، لا سقف عليه، أما جوانبه الأربعة فكانت مسقوفة، وكانت المساحة المسقوفة من الحائط المجاور للقبلة أكبر من غيرها، وجدير بالذكر الإشارة إلى أهمية وجود الصحن المكشوف في وسط المسجد للإضاءة والتهوية.

وقد تم توسيع المسجد بعد عهد رسول الله (ص)، ففي عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- سنة (17 هـ)، زيد في مساحة المسجد، ونتج عن هذه الزيادة زوال الجدران التي بناها الرسول الكريم (ص)، ماعدا الجدار الشرقي التي كانت تلتصق به بيوت النبي (ص)، وقد اتبع المسلمون التخطيط الذي وضعه الرسول (ص) لمسجده.

المسجد الأقصى: أقام عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- مسجداً خشبياً عند الصخرة المقدسة التي ذكرت في قصة الإسراء والمعراج، وإلى الجنوب من قبة الصخرة يوجد المسجد الأقصى، حيث أقصى مكان وصل إليه البراق برسول الله (ص) ليلة الإسراء.

البيوت: وكما كانت المساجد على عهد النبي (ص) والخلفاء الراشدين بسيطة البناء، كانت بيوتهم كذلك تتسم بالبساطة، وقد كانت بيوت النبي (ص) مبنية بالطوب اللين، وهي تسع حجرات، كان منها أربع حجرات من جريد عليها طبقة من الطين، والخمس الباقية مبنية بالطوب اللين، وكان سقفها في متناول اليد، وكذلك كانت بيوت الصحابة.

المدن: بنى المسلمون في عهد الراشدين المدن، ومنها مثلاً:

مدينة الفسطاط التي بناها عمرو بن العاص -رضي الله عنه- في مصر، بأمر الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، واختار لها موقعاً متميزاً على النيل، في الموضع الذي كان يشغله حصن بابلون، وقد كان بناء المدينة في بداية الأمر على غير نظام هندسي دقيق، برز فيه حرص المسلمين على الحفاظ على حرمتهم، بعدم بناء نوافذ كبيرة مطلة على الشوارع، وإنما كانوا يستمدون الضوء من فناء كبير بداخل المنزل، وكانت البيوت من طابق واحد في بداية إنشائها، ثم بدأت تتكون من أكثر من طابق في أواخر عهد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وبنى عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مسجده بجوار مدينة الفسطاط، وكان بناء المسجد بسيطاً من الطوب اللين ومغطى بالجريد، وكان في ذلك الوقت يطل على النيل.

عصر الخلافة الأموية:

مع كثرة الفتوحات في عصر الأمويين كثر الاتصال بالحضارات المختلفة والتأثر بها، ولم يقف المسلمون عند حد التأثر والاقتراب، فابتكروا وطوروا وأبدعوا ودخلوا مجال التنافس مع الحضارات الأخرى.

ومن أهم ما تركه لنا الأمويون:

مسجد قبة الصخرة: وتعد من أهم وأبدع آثار الأمويين، وهي آية في الجمال والبراعة المعمارية، وقد بناها عبد الملك بن مروان سنة (72 هـ)، ويلاحظ عليها المبالغة في الزخرفة، والتألق في رسم الأشكال الجمالية، مما يوحي بدخول الفن الإسلامي مرحلة جديدة من الاهتمام بالزخرفة، والتفنن في إتقان الزخارف بشتى أنواعها مما يدل على تأثر الفن الإسلامي بالفنون المعمارية السائدة في هذا الوقت.

المسجد الأموي بدمشق: ويعد هذا المسجد من أهم فنون العمارة الإسلامية، فقد بناه الوليد بن عبد الملك بين عامي (88-96 هـ)، ويعد مرحلة جديدة في دخول عنصر الزخرفة في بناء المساجد، والتي لم تعد تحتفظ ببساطتها المعهودة، ولعل هذا يعد تطوراً طبيعياً لتطور فن العمارة عند المسلمين.

قصور الأمويين: استحدث الأمويون نوعاً جديداً من المباني وهو القصور، ومنها قصر عُميرة، وكان قصراً صغيراً على بعد خمسين كيلو متراً من مدينة عمان عاصمة الأردن، وقد بناه الوليد بن عبد الملك ليستريح فيه عند خروجه للصيد، ومنها قصر الشمال الذي بناه الخليفة هشام بن عبد الملك، ومنها قصر المشتى، وقد كانت هذه القصور على درجة عالية من البراعة في التصميم وجودة الزخرفة. وكان عهد الوليد بن عبد الملك عهد دخول العمارة الإسلامية ميدان الزخرفة، والتألق في البناء، وذلك بعد الاحتكاك بالحضارات الأخرى والتأثر بها، والأخذ بزينة الدنيا، التي لم يحرمها الإسلام، ولكنهم مع أخذهم بزينة الدنيا، لم ينسوا الاهتمام بأمر دينهم والعمل لأخرتهم.

عصر الخلافة العباسية:

وفي عهد العباسيين زاد الاتصال بالحضارات المختلفة، فزاد الاهتمام بالعمارة وزخرفتها، واشتد اهتمامهم ببناء القصور والمدن.

مدينة بغداد: فقد بنى الخليفة المنصور مدينة بغداد لتصبح عاصمة العباسيين الجديدة، وفي بناء هذه المدينة برزت الدراسات الجيدة لاختيار الموقع والتخطيط قبل التنفيذ، فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور رسم تخطيط لها على الأرض قبل إنشائها، وتخطيط مدينة بغداد دائري، ولها أربعة مداخل رئيسية محورية، واستمر بناء هذه المدينة من عام (145 هـ) حتى عام (147 هـ) وكان للمدينة سوران خارجيان؛ الداخلي منهما أسمك وأعلى، وكان يحيط بسور المدينة من الخارج خندق عرضه ستة أمتار.¹⁵ وكان يقع في قلب المدينة قصر المنصور، وكان يعرف باسم قصر الذهب، وهو قصر فخم لم يشهد المسلمون مثله من قبل، وبجوار القصر يوجد المسجد، وهو ملاصق لحائط القصر الشمالي الشرقي، وحول القصر توجد قصور الأمراء والمباني الحكومية، وفي المساحات التي بين المداخل الأربعة الرئيسية كانت توجد المناطق السكنية، وفي كل قسم شوارع رئيسية يتراوح عددها بين ثمانية وأثني عشر شارعاً يتجه نحو وسط المدينة، وكان للمدينة ثمانية أبواب حديدية.

مدينة سامراء: وكانت تسمى (سُرٌّ مَنْ رَأَى)، وكان مكانها قبل بنائها دير (مكان عبادة للنصارى) في الصحراء اشتراه الخليفة المعتصم من أصحابه وبنائها مكانه، وكانت هذه الأرض تقع على الضفة اليمنى من نهر دجلة، وعلى بعد مائة وثلاثين كيلو متراً، وأحضر المعتصم المهندسين فاختاروا له مواقع القصور، وبنى لكل واحد من أصحابه قصرًا، وتم تخطيط شوارع المدينة كأحسن ما تكون الشوارع من ناحية الاتساع والطول، وأحضر من كل بلد من يجيد فن العمارة والزراعة وهندسة البناء والصناعة. وقد استخدم المهندسون والعمال ما بين أيديهم من المواد الخام، فمن الطين صنعوا اللبن والأجر، وقاموا بتزيين الجدران بالجص وغيره من مواد البناء، وتفنونوا في زخرفتها، فل هذه المدينة أهمية في فن العمارة الإسلامية، فقد تقدم الفن المعماري فيها خطوات واسعة متلاحقة، وأصبح تشييد المدن وتخطيطها أبعد ما يكون عن الاقتصاد والبساطة، وتجلي الإسراف والترف في بنائها بأوسع معانيه، وهذا ينافي روح الإسلام ومبادئه السامية الداعية إلى البعد عن الإسراف والتحذير منه. وبنى بهذه المدينة مسجد سامراء الجامع، ويعد هذا المسجد أكبر المساجد القديمة في العالم الإسلامي، فقد بلغت مساحته بدون الزيادات مرة ونصف قدر مساحة المسجد الطولوني بمصر الإسلامية، وقد بدأ الخليفة المعتصم في بنائه وأتم بناءه

¹⁵ د. طه الخطيب وآخرون، مراكز الحضارة الإسلامية، القاهرة 2009

الخليفة المتوكل، وهو مبني على مساحة مستطيلة الشكل، بلغ طول ضلعها الأكبر (260) مترًا والأصغر (180) مترًا فكان يتسع لأكثر من مائة ألف مصلٍ.¹⁶

مدينة القطائع: وقد بناها أحمد بن طولون في مصر على نمط مدينة سامراء، وقد اختار لها الفضاء الواسع الذي كان يقع إلى الشمال الشرقي من مدينة العسكر التي بناها العباسيون بالقرب من مدينة الفسطاط، وينتهي هذا الفضاء الذي بنيت فيه عند هضبة المقطم. وبدأ ابن طولون عام (256 هـ) في بناء قصر رائع له، وجعل أمامه ميدانًا عظيمًا يمارس فيه أنواع الرياضة، وسمح لأصحابه وأتباعه ببناء مساكن لهم، فاتصلت بمدينة العسكر والفسطاط، ويوجد في وسط القطائع هضبة سميت بجبل يشكر التي بنى عليها ابن طولون جامع الكبير. أما من حيث تخطيطها فلم يتبع تخطيط سامراء، بل سار على نمط الفسطاط والعسكر من حيث ضيق الشوارع وتعرجها وعدم نظامها، وكان بالمدينة الأسواق والحمامات والطواحين، وبنى ابن طولون أيضًا قناطر للمياه تعرف الآن باسم مجرى الإمام، وذلك كي تمد قصره بالماء، وهذا القصر الذي كان وصفه يفوق الخيال، وقد أنفق عليه ابن طولون وعلى هذه القناطر أموالاً طائلة. وجاء بعد ابن طولون ابنه خمارويه فبالغ في الإسراف على هذا القصر مما أفسد مالية الدولة وعرض ملكه للضياع بسرعة.

مسجد ابن طولون: وقد أنشأ ابن طولون هذا المسجد في مدينة القطائع التي بناها فوق هضبة جبل يشكر، وكان المسجد يتصل بالميدان الذي أنشأه أمام قصره ولذلك سمي جامع الميدان، ويتكون المسجد من صحن مربع في الوسط، وهو فناء مكشوف، وتحيط به أربعة أروقة، ويحيط بالمسجد من الخارج زيادات من ثلاث جهات ماعدا حائط القبلة التي كانت تلاصقها دار الإمارة التي أنشأها ابن طولون.

اهتم العباسيون كذلك ببناء القصور الفاخرة، مثل: قصر الخليفة المعتصم في مدينة سامراء، وقصر المأمون، وغير ذلك. وهكذا نجد تأثر العمارة الإسلامية في العصر العباسي بالعمارة في الحضارات الأخرى والاهتمام بالزخرفة والإسراف في بناء القصور وتشييدها، مما يعد تطورًا لا يتمشى مع روح الاعتدال والبعد عن الإسراف الذي نهى عنه الإسلام.

العمارة في الأندلس وبلاد المغرب:

كان للزهاد والصوفييين الذين كانوا مع المرابطين والموحدين بالمغرب آراؤهم في البذخ والتترف في البناء، مما أدى إلى الاعتدال في البناء، بعد أن كان قد وصل إلى درجة كبيرة من الإسراف والتترف في البناء والزخرفة، وقد بلغ الفن الإسلامي في الأندلس قمة ازدهاره، في قصر الحمراء الذي بني في القرن الثامن الهجري، ثم توقف تطور الفن الإسلامي في الأندلس بعد ذلك، بسبب الاضطرابات التي وقعت فيها قبل سقوطها. وكانت أهم المراكز الفنية المعمارية في بلاد المغرب أشبيلية، وغرناطة، ومرآكش، وفاس، وقد تركت لنا الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب عدة آثار معمارية رائعة¹⁷، نكتفي منها ببعض الأمثلة من بلاد الأندلس وهي:

المسجد الكبير بقرطبة: وقد بناه عبد الرحمن الداخل في قرطبة وقت استقراره، ثم أدخلت عليه بعد ذلك تعديلات كثيرة، وتضم المساحة الكلية للبناء -بما في ذلك الجدران- شكلاً يكاد يكون رباعياً، وينقسم إلى قطاعين من الشمال إلى الجنوب يتساويان فيما بينهما تقريباً، ويبلغ ارتفاع المسجد تسعة أمتار، يرتكز على أعمدة رقيقة، تحمل أخرى أقل منها حجمًا، يربط بينها عقود متداخلة يعلو بعضها بعضاً.¹⁸ وقد بنى الولاة في الأندلس مساجد أخرى كثيرة، غير أنها تهدمت، وتحول بعضها إلى كنائس بعد زوال الحكم الإسلامي من الأندلس، حتى مسجد قرطبة بُني في داخله هيكل كنسي، وترك لنا الأندلسيون عدة آثار أخرى كثيرة منها:

مدينة الزهراء: وقد بناها عبد الرحمن الناصر سنة (325 هـ)، وقد جلب لبنائها الرخام من إفريقية وروما والقسطنطينية، وبنى في قصر المؤنس بها حوضاً من الرخام زينه بنقوش مذهبة بها صور آدمية، وجعل عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر، وهذا تطور جديد حيث استعملت الصور والتماثيل التي حرّمها الإسلام.

وجعل سقف قصر الخلافة وجدرانه من الرخام ذي الألوان الصافية، وأنشأ وسطه صهريجاً عظيماً مملوءً بالزئبق، وكان للقصر من كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، وكانت الشمس تدخل تلك الأبواب فيضرب شعاعها جدران القصر، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار، وكان في هذه المدينة محلات للوحش، ومسارح للطير، ودور لصناعة آلات الحرب، والحلي وغيرها من الصناعات، وكان بها مسجد صغير مزخرف بالرخام والذهب والفضة.

¹⁶ د. طه الخطيب وآخرون، مراكز الحضارة الإسلامية، القاهرة 2009

¹⁷ للدكتور تاج السر الحران، العلوم والفنون في الحضارة الإسلامية نشر دار إشبيلية للنشر والتوزيع في الرياض، 2001

¹⁸ نفس المصدر

قصر الحمراء: بناه حكام بني الأحمر في غرناطة بعد زوال سلطان الموحديين من الأندلس، ويعد هذا القصر أعظم الآثار الإسلامية في روعة البناء والزخرفة والهندسة، فقد وضع فيه المهندسون خلاصة فنهم وجعلوه قصرًا خياليًا، تبهر زخارفه وعقوده الأبصار، وتنطق الطبيعة بما حوله من خضرة وماء بأروع صور الجمال والبهاء.¹⁹

وكان هذا الإسراف المادي في البناء والزخرفة على حساب التقدم الروحي للمسلمين في تلك البلاد؛ مما جعل الناس يركنون للراحة والكسل، مما أطمع أعداءهم، وألان شوكتهم، وأزال دولتهم، وخسرت البشرية خيرًا كثيرًا بزوال خلافة المسلمين في تلك البقاع.

عصر الفاطميين:

لقد تميز فن العمارة الفاطمي بسمات خاصة وطابع جديد، وقد ترك لنا الفاطميون عددًا من الآثار المعمارية الرائعة نذكر لك أمثلة منها:

مدينة القاهرة: بعد استيلاء جوهر الصقلي على الفسطاط عام (358 هـ)، وضع تخطيطاً لمدينة القاهرة، وكان تخطيطها على شكل مربع تقريباً، يواجه أضلاعه الجهات الأربع الأصلية، ويتجه الجانب الشرقي نحو المقطم، والغربي يسير بمحاذاة النيل، والبحري نحو الفضاء الواقع في الشمال، والقبلي يواجه الفسطاط، وطول كل ضلع من أضلاع المدينة ألف ومائتا متر، ومساحة المدينة ثلاثمائة وأربعون فدناً، وكان هذا السور مبنياً من الطوب اللبن، ويتوسط المدينة قصران هما: القصر الكبير الشرقي، والقصر الصغير الغربي، وبينهما ميدان لاستعراض الجند، وأصبحت القاهرة عاصمة للخلافة الفاطمية التي امتدت من المغرب إلى الشام، وكان بسور القاهرة عدة أبواب لم يبقَ منها الآن سوى بابي النصر والفتوح في الشمال، وباب زويلة في الجنوب، وهي تمثل العمارة الحربية في العصر الفاطمي.

الجامع الأزهر: ومساحة المسجد الأزهر الأول الذي بناه القائد الفاطمي جوهر الصقلي بأمر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله تقترب من نصف مساحته الحالية، ولقد أضيفت إليه زيادات كثيرة في أزمنة مختلفة حتى وصل إلى تصميمه الحالي، وتوسطه صحن مكشوف تحيط به أربعة أروقة أكبرها رواق القبلة، وليس بالجامع مؤذنة ترجع إلى العصر الفاطمي، فالمآذن الحالية تنسب للسلطان قايتباي والسلطان الغوري، وللأمير عبد الرحمن كتحدا العثماني أحد أمراء القرن الثامن عشر الميلادي.²⁰

قصور الفاطميين: وقد شيد الفاطميون عددًا من القصور أهمها: القصر الذي بناه جوهر الصقلي بالقاهرة للخليفة المعز، وكان في الفضاء الذي يقع فيه الآن

خان الخليلي ومسجد الحسين، وقد أطلق عليه القصر الشرقي الكبير، كما أطلق عليه القصر المعزّي، ويقال إنه كان به أربعة آلاف حجرة، وبه عدة أبواب، وكان في غرب هذا القصر، قصر آخر أصغر منه، هو القصر الغربي الذي بناه العزيز بالله، وموقعه مكان سوق النحاسيين، وقبة الملك المنصور وما جاورها، وهكذا غلب طابع الإسراف على فن العمارة في عهد الفاطميين، وأسرفوا في النفقات على مبانيهم الخاصة بهم.

عصر الأيوبيين:

كان عصر الأيوبيين بداية ظهور خط النسخ على العمائر وغيرها من التحف، واستعمل الخط الكوفي في كتابة الآيات القرآنية وغيرها. ومن مميزات فن العمارة الأيوبي تطور بناء المآذن كما ظهر بناء الخوانق، وهي دور كانت تبنى لإقامة الصوفية، كما كثر إنشاء المدارس، وأهم هذه المدارس:

المدرسة الناصرية: وكان إنشاؤها بجوار جامع عمرو، فحين أصبح صلاح الدين سلطانًا بنى المدرسة الصلاحية عام (572 هـ) بجوار قبر الإمام الشافعي.

¹⁹ ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريدة، لحضارة الإسلام في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متز - دار الكتاب العربي - بيروت

²⁰ عفيف بهنسي، خطاب الأصالة في فن العمارة (دار الشرق، دمشق، 2004)

مدرسة وضريح السلطان نجم الدين أيوب: وتتكون من جزأين رئيسيين يفصلهما ممر، وتعلو مدخله منئذنة، وملحق بالمدرسة ضريح، وتعلوه قبة من الطوب وحوائط الضريح من الحجر، وهنا تطور جديد وهو وجود الأضرحة والاهتمام بها، وهذا أمر مخالف لسنة رسول الله (، وكان أول من أدخل هذه الأضرحة السلاجقة.²¹

عصر المماليك:

ينقسم عصر دولة المماليك إلى عصرين، دولة المماليك البحرية، ودولة المماليك الجراكسة، ومن أهم العمانر الإسلامية في عهد المماليك البحرية: جامع الظاهر ببيرس، ومدرسة وضريح ومستشفى السلطان قلاوون ومسجد المارداني، ومدرسة ومسجد السلطان حسن. وهذان مثالان لهذه العمارة:

مسجد الناصر قلاوون بالقلعة: وهذا المسجد مربع الشكل، ويتكون من صحن محاط بأربعة أروقة ورواق القبلة، يتكون من أربعة بلاطات، والأروقة الأخرى يتكون كل منها من بلاطتين فقط، أما القبة التي تعلو المحراب فتشغل ثلاث بلاطات مربعة، والواجهة بسيطة تعلوها صف من النوافذ ذات العقود المدببة، وللمسجد مدخلان بارزان عن الواجهة.

مدرسة ومسجد السلطان حسن: ويقع هذا الأثر الرائع بميدان قلعة صلاح الدين، وقد أنشأه السلطان حسن بن محمد بن قلاوون، وهو من أجمل الآثار الإسلامية، فمبانيه تجمع بين قوة البناء وعظمته، ودقة الزخارف وجمالها، والملاحظ في منطقة قلعة صلاح الدين التي يقع فيها هذا الأثر، عند النظر إليها من لوحة مصورة، كثرة المساجد الأثرية القديمة في هذه المنطقة. أما دولة المماليك الجراكسة، فقد تركت لنا عدة آثار رائعة منها:

مدرسة وضريح السلطان قايتباي بالقرافة الشرقية: ألحق سلاطين المماليك بالمساجد والخوانق الشرقية مدافن لهم، ومن الآثار المعمارية التي أنشئت في هذه المنطقة مجموعة السلطان قايتباي، والتي تعد من أروع وأجمل المجموعات المعمارية في مصر الإسلامية، ويرجع جماله إلى تنسيقها، فهي تتكون من مسجد ومدرسة وسبيل وكتاب وضريح ومنئذنة، وقد أدت دقة الصناعة دوراً هاماً في إبراز جمال هذا الأثر المعماري القيم.

مسجد الغوري ومجموعته المعمارية: وتتكون من وكالة وحمام ومنزل ومقعد وسبيل، وكُتَّاب ومدرسة، وقبة، ثم المسجد ويمتاز شكل منئذنته بقمته المكونة من رأسين مربعين، وقد برع المماليك في بناء الدور والمنازل والقصور، وبلغوا فيها حدًا كبيراً من الدقة والمتانة والجمال.²²

عصر السلاجقة:

اتسم عصر السلاجقة بسمات فنية معمارية كثيرة، أهمها: الميل إلى استخدام النحت والحفر في الزخرفة، بتأثير العنصر التركي، ومن أبرز ما تركه لنا السلاجقة في عصورهم المختلفة، عدد من المدارس الدينية للعالم الإسلامي، وذلك بتشجيع من ملك شاه ووزير نظام الملك.

كما أنهم أول من أدخل فكرة بناء الأضرحة كأبنية مقدسة في إيران، ومنها انتشرت في العالم الإسلامي، كما تركوا لنا عدة مساجد أثرية رائعة، ومن أشهرها: مسجد الجمعة في قزوين، ومسجد الجمعة بأصفهان الذي شيده نظام الملك.

²¹ شافعي، فريد. العمارة العربية في مصر الإسلامية – عصر الولادة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (1971م).

²² نفس المصدر السابق

المراجع:

- أبحاث المؤتمر العالمي الثالث للاقتصاد الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة، 2005 .
ابن تيمية، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية.
تحقيق: د. محمد رضوان الداية، التوقيف على مهمات التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، 1990م.
ترجمة: محمد عبدالهادي أبو ريده، لحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متر- دار الكتاب العربي - بيروت
- د. أحمد علي عجيبة أستاذ العقيدة والأديان، أثر الكنيسة على الفكر الأوربي، دار الأفاق العربية الطبعة الأولى 2004 القاهرة
د. تاج السر الحران، العلوم والفنون في الحضارة الإسلامية نشر دار إشبيليا للنشر والتوزيع في الرياض، 2001
د. طه الخطيب وآخرون، مراكز الحضارة الإسلامية، القاهرة 2009
د. عبد الرحمن بدوي، الفلسفة والفلسفة في الحضارة العربية، 1987
الدكتور عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن، دار الفكر العربي، القاهرة، 2010.
شافعي، فريد. العمارة العربية في مصر الإسلامية – عصر الولادة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، (1971م).
الشيخ حسن أيوب، فقه المعاملات المالية في الإسلام ، القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1998
عفيف بهنسي، خطاب الأصالة في فن العمارة (دار الشرق، دمشق، 2004)
- علي بن نايف الشحود، الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل، 2009
محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الجامع الصحيح (صحيح البخاري): دار الشعب، القاهرة، الطبعة: الأولى، 1987م.
محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون.
محمد كرد علي، الإسلام والحضارة العربية، دار الفرقان، 2008